**د.مباركية عيسى**
**كلية الآداب واللغات**
**قسم اللغة والأدب العربي**

**المقياس: قضايا نقدية**
**التخصص: أدب حديث ومعاصر ـ ماستر**
**المستوى: ثانية ماستر، السداسي 3**

**المحاضرة رقم 02:**

## عنوان المحاضرة: بوادر الحداثة في الدراسات العربية

تسعى هذه المحاضرة إلى إبراز الفروق الكامنة بين كل من الحداثة والمصطلحات المرادفة لها، كما تتطرق في ثناياها إلى بعض المفاهيم المتعلقة بالحداثة سواء أكانت هذه المفاهيم عند الغرب أو عند العرب، كما تناولت أيضا نشأة الحداثة عند الغرب وبعدها عند العرب.

### 1- الفرق بين الحداثة والمصطلحات المرادفة لها: ( التحديث، التجديد، المعاصرة...)

لقد اعتقد بعض الدارسين أن التحديث والمعاصرة والتجديد، مصطلحات مرادفة لمصطلح الحداثة، ورأو بأنها مصطلحات تحمل نفس المعنى ونفس المفهوم، إلا أن المتعمق والمتفحص لهذه المصطلحات ومفاهيمها، ستبدو له الفروق واضحة، لذا سنحاول بادئ ذي بدء التفريق بين هذه المصطلحات:

**أ ــ التحديث:** يختلط مفهوم "الحداثة" بمفهوم "التحديث"؛ والذي هو في حقيقة الأمر "استجلاب للتقنية والمخترعات الحديثة، حيث توظف هذه التقنيات في الحياة الاجتماعية دون إحداث أي تغير عقلي أو ذهني للإنسان من الكون والعالم"، فهو (التحديث) الأخذ بالتطور العلمي والتقني، وإشادة البنية التحتية للمجتمع حسب معطيات هذا التطور، وفي مختلف جوانب الحياة العمرانية، وأنماط الاستهلاك والعيش والمواصلات والاتصالات وغيرها من المنتجات والمخترعات التي وصلت إليها البشرية.

**ب ــ التجديد:** اختلط أيضا مفهوم "الحداثة" بمفهوم "التجديد"؛ فالتجديد يكون جزئيا وليس شاملا، "فالرصافي" مثلا مجددا في عصره، "مطران" كذلك مجددا في عصره... أما الحداثة فهي حركة تجديدية شاملة، **والتجدد هو أحد شروط الحداثة**، فهو مرتبط بالبيئة، ولكن الحداثة عالمية، والتجديد له ملامح قديمة، مثل: المرأة في النص الكلاسيكي، الحب في النص الرومانسي.

**ج ــ المعاصرة:** وتعني التزامن، فالمعاصرة ترتبط بالعصر، فتكون بذلك ذات دلالة زمنية، **والتزامن أحد شروط الحداثة**، ولكنها لا تتطابق مع الحداثة والمعاصرة أشمل من الحداثة، لأنها لا تقتصر على زمن دون آخر، في حين تقتصر الحداثة على زمن معين، فالشعر الحديث معاصر بالضرورة، ولكن ليس الشعر المعاصر كله حداثيا.

**ــ أما الحداثة:** فهي موقف عقلي تجاه مسألة المعرفة وإزاء المناهج التي يستخدمها العقل في التوصل إلى معرفة ملموسة، وهي أمر مختلف كليا عن التحديث والتجديد والمعاصرة، لأنها تهتم بالجوانب الفلسفية والفكرية والثقافية والسياسية القائمة في المجتمعات ومفاهيمها، فقد قدمت الحداثة مفاهيم جديدة في الفلسفة، وشددت على تبني العقلانية وتفعيل العقل، وأحدثت قفزة فكرية شديدة الأهمية في تاريخ الفكر الإنساني...

وفي هذا الجانب "عبد الله الغذامي" حاول التمييز بين هذه المصطلحات، إذ نجده يقول: " أن ماهو جديد سيكون قديما في الغد، والقديم اليوم، كان جديدا في زمنه، لكن الحداثة لا تقدم.

وكل ماهو حداثة اليوم أو أمس لن يصبح في الغد "لا حداثة" ، ونقيض الحداثة ليس القدم، ولكنه السكونية اللاواعية، حينئذ الحداثة هي الفعل الواعي أخذا بالجوهر الثابت وتبديلا للمتغير المتحول"

**2ـ مفاهيم الحداثة:**

يعد مصطلح الحداثة من أبرز المصطلحات النقدية المعاصرة، والمتداولة على الساحة الفكرية العالمية، نظرا لما يجسده من أهمية كبيرة باعتبار أن تحقيق النهضة قائم على ما يقدمه هذا المفهوم وكل منتجاته ولواحقه، وهو الأمر الذي يجعلنا نبحث عن مفهومه.

**أ ـ عند الغرب:** يتفق الغربيون المهتمون بدراسة الحداثة على أنها: " منهج تغييري ومذهب انقلابي في المفاهيم والأفكار، يتطور مفهومها بتطور الزمان".

ويعرفها الروائي الفرنسي "فلوبير" بأنها: " التعصب للحاضر ضد الماضي، بمعنى أن الوعي الحداثي ليس تشبعا لسلطة ماضوية وحنينا إلى الأصل وحقبة ذهنية، بل هو تمجيد للحاضر وانفتاح على الآتي"، ويتضح من هذا المفهوم أن الحداثة عنده مرتبطة بالزمن والكتابة والانقطاع مع الماضي، وهي خطوة لبث أدب حديث متجدد لكل ماهو غير مألوف.

ويعرفها الناقد الفرنسي "رولان بارت": "بأنها انفجار معرفي لم يتوصل الإنسان إلى السيطرة عليه ففي الحداثة تنفجر الطاقات الكامنة وتتحرر شهوات الإبداع في الثورة المعرفية، مولدة سرعة مذهلة وكثافة مدهشة وأفكارا جديدة وأشكالا غير مألوفة وتكوينات غريبة وأقنعة عجيبة في بعض الناس، ويقف بعضهم الآخر خائفا منها، هذا الطوفان المعرفي يولد خصوبة لا مثيل لها."

**ب ـ عند العرب:** أما عن مفهوم الحداثة في العالم العربي فمن الصعب استظهار كل المفاهيم المتعلقة بالحداثة في العالم العربي لعدم تمكن النقاد العرب من تحديد تعريف دقيق له، لذلك سنكتفي باستظهار بعض المفاهيم التي قالها بعض أعلامها، ومنها:

يقول "أدونيس" (وهو أحد أعمدة الحداثة في الوطن العربي): "الحداثة هي موقف معرفي أدى إلى تغيير نظام الحياة، وهذا الموقف المعرفي يقوم على أن الإنسان هو مركز العالم ومصدر القيم، وعلى أن المعرفة اكتشاف للمجهول الذي لا ينتهي، وعلى أن مصدر القيم ليس غيبيا، وإنما هو إنساني" ، كما تعني عنده ـكذلكـ على أنها : "نشوء حركات ونظريات وأفكار جديدة، ومؤسسات وأنظمة جديدة تؤدي إلى زوال البنى التقليدية القديمة في المجتمع وقيام بنى جديدة."، وهذا ما يعني أن الحداثة لا تتحقق إلا عن طريق الثورة، والمهم في هذه الثورة أن تتمكن من تحقيق التحول من الوضع القائم إلى وضع آخر أفضل مختلف عن الأوضاع التقليدية السابقة.

ويذهب "محمد عابد الجابري" في تصوره لمعنى الحداثة "بأنها ليست هناك حداثة مطلقة كلية وعالمية، وإنما هناك حداثات تختلف من وقت لآخر ومن مكان لآخر وبعبارة أخرى، الحداثة ظاهرة تاريخية وهي ككل الظواهر التاريخية مشروطة بظروفها محدودة بحدود جمالية ترسمها الصيرورة على خط التطور"

ويراها "عبد الله الغذامي" " بمثابة الموقف الخاص أكثر مما هي تصور معرفي مشترك"، وهو ما يعني أن كل مفهوم للحداثة هو نتاج اجتهاد فردي ورؤية شخصية، لذلك تعددت مفاهيمها.

فمن خلال ما تقدم من مفاهيم وتعاريف للحداثة، يمكن لنا القول بأنها ذلك الوعي الجديد بمتغيرات الحياة والمستجدات الحضارية والانسلاخ من أغلال الماضي، والانعتاق من هيمنة الأسلاف، واستجابة حضارية للقفز على الثوابت، وتأكيد مبدأ استقلالية العقل الإنساني تجاه التجارب الفنية السابقة.

**3 ـ نشأة الحداثة عند الغرب:**

لقد اختلف النقاد في تحديد تاريخ نشوء الحداثة، وفي تحديد مكان نشوئها أيضا، ودلالتها وكذا الموقف منها، إلا أنهم أجمعوا على نشأة الحداثة في الغرب، ولكن لا يزالون مختلفين في التأريخ لها، فغالبية الباحثين يرون أن بواكير الحداثة بدأت منذ أواخر القرن التاسع الميلادي على يدي "شارل بودلير" الفرنسي صاحب ديوان (أزهار الشر )، إذ نهج "شارل بودلير" خطى التحرر والانفتاح، ودعى إلى ثورة شاملة على العادات والتقاليد القديمة والاتجاه نحو التجديد والمعاصرة.

وتمرد "شارل بودلير" على الواقع المر الذي عايشه محاولا التحرر من الأعراف الاجتماعية مجسدا الخطيئة في الكنيسة، وعندما عجز عن تغيير العالم الذي بدأت تأكله الرأسمالية تحول إلى ذاته يخاطبها عن طريق مداعبته للغة حيث قام بخلخلة بنية القصيدة القديمة..." .

"فشارل بودلير" يعد مؤسس تيار الحداثة من الناحية الفنية الأدبية، فعلى يديه نمت وترعرعت بذرة الحداثة، فهو الذي نادى بالغموض في الأحاسيس والمشاعر والفكر في أساسها الأول على الغموض وتغيير اللغة، والتخلص من الموروث بكل أشكاله وأجناسه، وتجاوزه للسائد والنمطي.

ثم أعقب "شارل بودلير" رائد آخر من رواد الحداثة " مالارميه" الشاعر الفرنسي الذي امتاز شعره بالغموض الذي يعتبر من أهم عناصر شعر الحداثة، فالقصيدة الحداثية عند "مالارميه" تتسم بالغموض والتعقيد وتثير في النفس الانفعال والتأثير وتدفع القارئ نحو البحث والكشف عن المعاني الخفية والإجابة عن الأسئلة الغامضة التي يحملها في طياته وإيجاد حلول لألغازه.

ثم أعقب " مالارميه" و" بودلير" رائدا آخر من رواد الحداثة وهو الشاعر السريالي "رامبو" ؛ هذا الأخير الذي تميزت حداثته هو الآخر "بالخروج عن المألوف الذي هو الخروج عن القصيدة النموذج، محاولة إبداع نسق جديد يخالف النظام الموجود في الواقع المادي المحسوس، فهو يرتكز على مبدأ اللاوعي في بناء القصيدة ويوظف الشعور الباطني والانفعال المشحن بمشاكل العصر".

فالحداثة إذن ارتبطت ارتباطا وثيقا بالفكر الغربي الإيديولوجي، فهي نتاج غربي محض تنشد التغير والتجدد والاستمرار، فهي متصلة اتصالا شديدا بما سبقها من وجودية ورمزية وسريالية ومادية جدلية، وواقعية اشتراكية وبرناسية ورمانسية... وعليه فالمشروع الحداثي الغربي بكل تجلياته الفكرية والفلسفية والعلمية والسياسية والثقافية لم يأت فجأة، ولم يتشكل دفعة واحدة وإنما هو إرث حضاري وفكري عريق.

**الحداثة عند العرب:**

إذا أردنا أن نؤرخ للحداثة العربية بمفهومها المتداول الراسخ في الأذهان، فإننا نكاد نجزم أنها تعود في بدايتها إلى أوائل القرن التاسع عشر مع مجيء الحملة الفرنسية على مصر (1798-1801)، وما أحدثته من صدمة فكرية، مازال صداها موجودا إلى وقتنا الحاضر، ويدل على ذلك الاتفاق بين بعض المؤرخين على التأريخ للعصر الحديث وتحديد بدايته بمجيء الحملة الفرنسية على مصر.

ثم أتبع ذلك البعثات العلمية التي أرسلها "محمد علي" إلى دول أوروبا؛ لتعلم الفنون الحديثة والعلوم الجديدة، فذهبوا إلى هناك بعقول شرقية وجنسيات عربية، وعادوا بعقول غربية في جنسياتهم العربية، فثاروا على ما لدى بني أوطانهم ، وراحوا يروجون لأفكار جديدة وأساليب حديثة في السياسة والاقتصاد والاجتماع والتمدين والتدين وشتى مناحي الحياة، ضاربين عرض الحائط ما لديهم من قيم سامية وأخلاق راقية ودين حنيف.

إضافة إلى البعثات العلمية ظهرت الجرائد والمجلات والمطابع ودور النشر التي تتبنى هذا الفكر، وساعد على ترسيخها وتأصيلها انتشار الفنون مثل : المسرح والسينما والإذاعة.

والحداثة العربية فرع من فروع الحداثة الغربية، فمعناها واحد ومفهومها متطابق، فهي مستورد من المستوردات الغربية، وهذا ماجعل بعض الباحثين يرفض التقليد الأعمى للحداثة الغربية بقوله: "نحن فعلا بحاجة إلى حداثة حقيقية تهز الجمود وتدمر التخلف وتحقق الاستنارة، لكنها يجب أن تكون حداثتنا نحن، وليست نسخة شائهة من الحداثة الغربية" .

فالكثير من الحداثيين العرب يعترف صراحة بأن الحداثة في العالم العربي غريبة المنشأ والمصدر، في الشكل والمضمون، لذلك نجد بعض الحداثيين العرب يرفضون تلقي ما جاءهم من الغرب بسلبية شديدة.

فجين يرى "أدونيس" "أن تاريخ الحداثة العربية في الشعر يعود للقرن الثامن للميلاد؛ أين بدأت تظهر بوادر اتجاه شعري جديد تمثل في "بشار بن برد"، "أبي نواس"، "أبي تمام"، "الشريف الرافي" آخرون ... "

وفي العصر الحديث كان لتأثر الشعراء العرب بنظرائهم الغرب انعكاس كبير على شعرهم وتجلى ذلك مثلا في ظهور الشعر المرسل عند "عبد الرحمان شكري" ، والتجديد في اللغة عند "جبران خليل جبران" ...، وشعر التفعيلة على يد "نازك الملائكة" و "بدر شاكر السياب" ، الذين حرروا الشعر من الشكل العمودي، وكذا ظهور ما يسمى بقصيدة النثر على يد "يوسف الخال" و "أدونيس" وغيرهما.

وكان العقاد من أبرز الداعيين إلى التجديد في الشعر، وكذا "طه حسين" الذي تأثر بالمناهج الغربية وهذا ما أكدته كتاباته وآرائه النقدية التي تضمنها كتابه ( في العصر الجاهلي)، الذي أثار ضجة كبيرة وخصومات نقدية حادة بين أنصار القديم وأصحاب المشروع التنويري العقلي".

**مراجع ومصادر المحاضرة:**


1- محمد الشيكر: هايدغر وسؤال الحداثة.

2- عدنان علي رضا النحوي: الحداثة في منظور إيماني.

3ـ عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة – من البنيوية إلى التفكيك.

4ـ أدونيس: زمن الشعر.

5 ـ عبد الغني بارة: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر.

6ـ أدونيس: فاتحة لنهايات قرن.

7ـ محمد عابد الجابري: التراث والحداثة.

8ـ عبد الله الغذامي: تشريح النص – مقاربة تشريحية لنصوص شعرية معاصرة-.

9 عبد الحميد جيدة: الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر.

10ـ بشير تاوريريت: رحيق الشعرية الحداثية.

11ـ سامية راجح ساعد: تجليات الحداثة الشعرية في ديوان البرزخ والسكين للشاعر عبد الله حمادي.

12ـ عدنان حسين قاسم: الإبداع ومصادره الثقافية عند أدونيس.